(٣) تعليق على البحث السابق

بعد ما نشر الشيخ أبو عبدالرحمن الظاهري مقاله السابق الذي تحامل فيه كثيرًا على الهمداني وكتابه الإكليل، وحاول تفنيد آرائه ومعلوماته، كتب الشيخ حمد الجاسر تعقيبًا علق فيه على آراء الظاهري ودافع فيه عن الهمداني، وأوضح فيه صحة الكثير من معلوماته وضعف الكثير من استدلالات الشيخ أبي عبدالرحمن أو بطلانها، كما أوضح فيه موقفه من مسألة نسب حرب. وهذا نص ما كتبه علامة الجزيرة[1] رحمه الله:

(حين بعث إليّ أخي الأستاذ أبو عبدالرحمن بن عقيل هذا البحث، خيَّرني بين أمرين، نشره أو عدم نشره، وكدت حين قرأت فاتحته (أكاذيب الهَمْداني)، ثم قول الأستاذ أبي عبدالرحمن: (**إن الهَمْداني بِعُرْف المحدثين كذاب وضاع**)، كدت أسارع لقذفه بين ما أرمي به مما لا أعبأ به، غير أنني فكرت مليًّا، فرأيت أن لا أقابل تحية هذا الأستاذ الكريم وهديته لي ولإخواني ممن كانت صلة الهمداني بقبيلتهم من بواعث النيل منه، يضاف

---

(١) (تعليق على هذا البحث)، مقال بقلم الشيخ حمد الجاسر، نشره في مجلة العرب، س٣٠، ج١، ٢، إصدار شهري رجب وشعبان، سنة ١٤١٥هـ ص ص(٧٧-٨٠).

إلى هذا أن الأستاذ أبا عبدالرحمن لم يقل ما قال في حق الهمداني إلا بعد دراسة وتروٍّ، ولا بد أن يكون غيره من الباحثين له موقف مماثل لمثل موقفه، فرأيت نشر البحث مع إضافة تعليق موجز لإيضاح رأيي حوله:

١- يدرك الأستاذ الفاضل كما يدرك غيره أنَّ وصف عالم جليل بمثل تلك الأوصاف اعتماداً على مجرد الاستنتاج، ليس مما يقبل على عِلاَّته، فعلماء الجرح والتعديل من المحدثين عندما يصفون راوياً بمثل تلك الأوصاف يدللون على ما حدث منه من ذلك، وليس من اليسير التساهل في مثل هذا دون أن تثبت أدلة قاطعة على اتصاف ذلك الشخص بشيء من الصفات التي نسبت إليه.

٢- الهمداني عاش في عصر وفي قطر كانت تتنازع النفوذ فيهما ثلاث فرق متعادية، يحارب بعضها بعضاً، فرقة خاضعة للأمراء المحليين من أهل البلاد كَآل يُعْفِرَ وغيرهم، وأخرى ناشئة يتولى زعامتها الإمام الهادي وأتباعه، وفرقة ثالثة وهي فرقة القرامطة أتباع علي بن الفضل، وتوجد فرقة رابعة قوامها الأبناء من بقايا الفُرس الذين كان لبعض ذوي النفوذ من الأعاجم في الدولة العباسية في ذلك العهد بهم من الصلة ما يحملهم على مناصرتهم.

من هنا ولكون الهمْداني ذا صلة بالأمراء المحليين غير اليعفريين، ولأنه كان متأثِّراً بما كانت تعيشه البلاد من فرقة، وتغلغل أفكار

وآراء يراها طارئة ومضرة ببلاده، مع ما يتصف به من غزارة علم وسعة معرفة، كانت بعض آرائه على جانب من التطرف ممَّا أثار كراهية الآخرين وحقدهم، وجرَّ عليه من الويلات والمصائب ما هو معروف.

وكان من أثر ذلك ما يبدو من خلال مؤلفاته من إشادة بفضل القحطانيين، وتقديمهم على غيرهم، بل محاولة إظهار بعض مساوئهم بمظهر حسن، لا يتفق مع الواقع المعروف.

ومع ما اشتهر عنه من ذلك؛ أي من تعصبه لقومه تعصباً يدفعه في بعض الأحيان إلى ما يُحاذر منه كإيراد بعض الأخبار الباطلة، أو رواية بعض النصوص الشعرية رواية تخالف الرواية المشهورة، إلا أن جميع ذلك مما لا يتصل بالأمور الشرعية، بل يقتصر على الأخبار والحوادث التاريخية.

٣- لقد عرف متقدمو العلماء فضلَ الهَمْداني فيما تصدى لجمعه من تاريخ بلاده، بل من تاريخ العرب عامة وجغرافية بلادهم، وأشاد أولئك العلماء بفضله، واستفادوا من علومه، لا في علم الآثار الذي يعد الهمداني فرداً بين علماء العرب فيه، ولا في علم الفلسفة الذي وصفه صاعد الأندلسي في كتابه "طبقات الأمم" بقوله عن العرب: (**وأما علم الفلسفة فلم يمنحهم الله شيئاً منه، ولا هيأ طباعهم للعناية بقوله**

ولا أعلم أحداً من صميم العرب شهر به إلاَّ أبا يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي، وأبا محمد الحسن بن أحمد الهمداني).

ويضيف صاعد في وصف الهمداني بأنه: **(محيط بمباحث الفلسفة عن أصل العالم وقواعد المنطق والكلام).**

وأدرك أولئك العلماء فضل الهمْداني، وتميزه في علم التاريخ الذي يُعد علم الأنساب من فروعه، وهو ما اتخذ منه الأستاذ ابن عقيل مدخلاً للطعن في الهمداني، فقد قال الحافظ عبدالغني بن سعيد الأزدي (٣٣٢ - ٤٠٩هـ) شيخ حفاظ الحديث بمصر في عصره، كما ذكر ابن خلّكان وغيره، قال هذا العالم الجليل عن الهمداني: **(عليه المعوّل في أنساب الحميريين)** - رسم (قرأ) في "تاج العروس". ولهذا نجد علماء الأندلس يعنون بآثار هذا العالم، فينقلونها في حياته إلى ذلك القطر، وينتفعون بها ويلخصونها في مؤلفاتهم، ويعوّلون عليها.

وليس المقام مقام إشادة بما للهمداني من أثر في الثقافة العربية بصفة عامة، ولكن لإيضاح أن هذا العالم الجليل لا ينبغي أن توجه إليه تلك الصفات السيئة، وهو كغيره من البشر ليس معصوماً، ولكن له حرمة لعلمه وفضله، ولأنه لا يسوغ وصف أي امرئ لم يثبت بدلائل قطعية عنه ارتكاب ما يوجب وصفه من الأفعال المزرية ليحذر منه.

٤- لقد كان علم النسب عند الهمداني هو الباب الذي ولج منه الأستاذ أبو عبدالرحمن، فالهمداني نسب قبيلة حرب إلى خولان من قحطان، وأفاض الحديث عن هذه القبيلة في الجزء الأول من "الإكليل" وذكر انتقالها من اليمن واستقرارها في الحجاز.

من هنا ولج الأستاذ للنيل من هذا العالم الجليل، اعتماداً على ما قرأه في كتاب شيخه ابن حزم عن نسب حرب، وأنهم من بني هلال.

لا داعي للحديث عن كتاب ابن حزم في النسب، ولا عما أورده الهمداني. ولكن فات أبو عبدالرحمن - وفقه الله - أن من العلماء من سبق الهمداني بنسبة تلك القبيلة إلى اليمن، وباستقرارهم في القرن الثالث الهجري في الحجاز، فهذا أبو زيد البلخي: أحمد بن سهل (٢٣٥/ ٣٢٢هـ) صاحب كتاب "صور الأقاليم" يقول في الكلام عن وَدَّان: **(وَدَّان من الجحفة على مرحلة، بينها وبين الأَبْوَاءِ على طريق الحاج، في غربيها ستة أميال، وبها كان في أيام مقامي بالحجاز رئيس الجعفريين - أعني - بني جعفر بن أبي طالب، ولهم بالفُرْع والسائرة ضياع كثيرة، وعشيرة وأتباع، وبينهم وبين الحسينيين حروب ودماء، حتى استولى طائفة من اليمن يعرفون ببني حرب على ضياعهم، فصاروا حرباً لهم فضعفوا)**. انتهى.

وهذا ابن خلدون في تاريخه - (٤/ ٢٣٢) - في كلامه على ولاة المدينة يقول: **(وترددت ولاة بني العباس عليها، والرئاسة فيها بين بني حسين وبني**

جعفر، إلى أن أخرجهم بنو حسين، **فسكنوا بين مكة والمدينة، ثم أجلاهم بنو حرب من زبيد إلى القرى والحصون، وأجازوهم إلى الصعيد، فهم هنالك إلى اليوم، وبقي بنو حسين بالمدينة**). إلى آخر ما ذكر من حوادث القرنين الثالث والرابع الهجريين في المدينة عند تنازع ولايتها بين الجعفريين والحسينيين، وما حدث بينهم من حروب وفتن، انتصر فيها آخر الأمر الحسينيون، بعد أن انتشرت قبيلة حرب فيما بين المدينتين الكريمتين، واتصلت بالحسينيين وصاهرتهم، فأعانتهم على نزع ولاية المدينة من الجعفريين.

وعلى فَرْض أن الهمداني أول من قال بهذا مع تفصيله لخبر هذه القبيلة بما لا نجده عند غيره، أبقول ابن حزم وغيره من النسابين البعيدين عن بلاد العرب نَصِمُ الهمداني بتلك الوصمة السيئة وصمة (الكذب والوضع)؟ مع أن الباحث سيجد في مؤلفات علماء الأندلس ممن هم أشد عناية في علم الأنساب من ابن حزم، مثل الرشاطي، وبعده عبدالحق الإشبيلي الذي كان الأستاذ ابن عقيل كثير الاهتمام بمؤلفاته، نجد هؤلاء نسبوا قبيلة حرب إلى خولان؟

ففي مختصر الإشبيلي لكتاب الرشاطي الورقة الـ(٣٠) من المخطوطة الأزهرية الوحيدة ما نصه: (**الحربي في قبائل، ففي خولان القضاعية حرب بن سعد بن خولان، وفي همدان: حرب بن عبدالله بن وادعة**).

ومثل هذا في مختصر كتاب الرشاطي لعلي بن أحمد الحريشي الفاسي، المتوفى فيما بين سنتي (١١٤٣ و١١٤٥هـ) - "العرب" س٢٧ ص٥٦٦ - الورقة الـ(٢٧).

٥- وتحامل الأستاذ ابن عقيل على الهمداني في إيراده ترجمة محمد بن أبان الخنفري، وهي ترجمة أوردها الإشبيلي بنصها فقال في الورقة ال(٤٣) من المخطوطة: (**الخنفري في حِمْيَر ينسب إلى خنفر، وهو لقب لأبي زرعة الحارث، ثم أوصل نسبه إلى حِمْيَر الأصغر بن سبأ الأصغر - وقال: منهم: محمد بن أبان بن حريز بن أبي حُجْر بن زرعة بن عمرو بن زيد بن عمرو بن حجر بن أبي شَمِر بن عبد شمس بن سبأ بن خنفر، ولد سنة خمسين ومات سنة خمس وسبعين ومئة، قال: لم يكن في عصره مثله نجدة، وكرماً، وذماماً، وفصاحة، وحسن جوار ولين عريكة، مع شدة العارضة، وحمى الأنفة، وبعد الهمة**).

٦- أكتفي بهذه الملاحظات التي أردت منها تقديم ما كتبه باحث أُجِلُّه وأقدره لعلمه، ولحرصه على البحث المجد، الموصل إلى حقائق الأمور، راجياً أن تكون من الحوافز التي تدفعه إلى مواصلة البحث والدراسة في هذه الجوانب المتعلقة بحياتنا المعاصرة. والله الموفق).

انتهى ما كتبه: حمد الجاسر

***